بحث عام | قسم الدراسات الدينية | 21 أبريل 2017

علاقة الديـن بالعلـم عند برتراند راسل

محمد لشقر
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

علاقة الدين بالعلم عند برتراند راسل[1]

عرض في كتاب (العلم والدين)

[1] ألقيت هذه الورقة في ندوة: «الدين والعلم من منظور فلسفي»، المنعقدة بتاريخ 01 و02 نيسان/أبريل 2015م، اشراف د. صابر مولاي احمد، تنسيق د. عبد النبي الحري. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، بالتنسيق مع مختبر «التاريخ والعلم والمجتمع» بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة شعيب الدكالي.

ملخّص البحث:

يكشف عرضنا، في كتاب (**الدين والعلم**) لمؤلّفه الفيلسوف الإنجليزي المعاصر برتراند راسل، عن مجموعة من الفروقات المتحقّقة بين النظرية العلمية والعقيدة الدينية من جهة، والقواسم المشتركة الممكنة من جهة أخرى، ما بين العقيدة الدينية، والنظرية العلمية.

ظاهرياً، يبدو أنّ الحقيقتين العلمية والدينية تنتميان إلى عالمين مختلفين ومتعارضين، وهو اختلافٌ يتجسّد على مستوى المناهج المعتمدة، والغايات المرجوّة. إذا كان العلم يريد/يقدّم معرفة بالطبيعة، فإنّ الدين يريد/يقدّم معنىً للحياة. إنّ الحقيقة الدينية حقيقة اتّخذت شكل عقيدة لا تجادل، ولا تُردّ، فأضحت ثابتة، وغير قابلة للتغيير. في المقابل، يستند العلم على الملاحظة، والفرضية، والتجريب، ليلتزم أكثر بانضباط عقلاني ما. يهدف العلم إلى معرفة الواقع والطبيعة، ويطمح إلى بناء نظريات كليّة، ولو كانت بصلاحية مؤقتةً فحسب.

تجد الحقيقة العلمية نفسها، اليوم، أكثر فأكثر، مشروطة بالتطوّرات التقنية، التي تجعلها أكثر دقّة؛ لذلك تخضع هذه الحقيقة، بوصفها تجريبية وعملية بالأساس، للتطوّر التقني؛ بل إنّ ما نشهده هو كون الحقيقة العلمية ذاتها تحوّلت إلى حقيقة تقنية عملية ونافعة. لقد ترك العلم البحث عن الحقيقة، وعليه، لم تبقَ المعرفة عبارة عن صورة ذهنية للكون، أو بحث في الأسئلة الأساسية المرتبطة بالأصول والغايات، بقدر ما أصبحت حلولاً ناجعةً لمشكلاتٍ عملية.

ينبّهنا راسل إلى أنّ هذه النزعة البراغماتية الجديدة في العلم لم تكن حاضرة لدى الروّاد، الذين استطاعوا الإبداع؛ لأنّهم آمنوا بالحقيقة، التي أضحت، بفعل حماسهم، لها مطلقةً، شأنها شأن الحقيقة الدينية.

هذه الرغبة في المعرفة والبحث عن الحقيقة قرّبت الحقيقة العلمية من الحقيقة الدينية. لقد امتلك هؤلاء الروّاد إيماناً قويّاً بالحقيقة مُشابهاً لإيمان المتديّنين بالإله، ومن هنا إمكانية تحوّل هذه الحقيقة العلمية إلى دوغمائية علمية.

كما هو معلوم، سيطر الدين على صورة العالم في القرون الوسطى، في حين سيُسيطر العلم على صورة العالم في العصر الحديث. لقد شكّلت مجلّات الفلك، والبيولوجيا، والطب، والتصوّف، والأخلاق، بُؤراً للصراع بين رجال الدين، ورجال العلم، طيلة القرون الأربعة الأخيرة، وهو صراع استطاع العلم، في تصوّر فيلسوفنا، أن يخرج منه مُنتصراً، وأكثر قوّة، في حين كان على الديانة المسيحية أن تُعيدَ التفكير في جوهرها، وتتخلّى عن رغبتها في مُمارسة الاضطهاد.

مقدّمة:

شغلت العلاقة بين الدين والعلم الإنسانيةَ على مدى تاريخها، لكن، ومنذ عصر النهضة، أصبح الصراع بين الدين والعلم موضوعاً لمحاكمات مشهورة لم تعرف الإنسانية فصلاً حقيقياً بين العلوم الطبيعية، والعلوم ما وراء الطبيعية، إلا خلال القرن السابع عشر الميلادي في أوروبا الغربية، ومع التراكم الكبير في الإنجازات العلمية طُرِح السؤال حول مكانة الدين عموماً، ومدى نجاعة النظرة الدينية للعالم خصوصاً.

نبتغي، في هذه الورقات، الوقوفَ عند الفروقات المتحقّقة من جهة، والقواسم المشتركة المُمكِنة، من جهة أخرى، ما بين العقيدة الدينية والنظريّة العلمية. وذلك مع التركيز بالكليّة على إسهام الفيلسوف المعاصر برتراند راسل (Bertrand Russell)، الذي شغلته قضيّة علاقة الدين بالعلم، ليخصّها بمؤلَّفٍ مفرد. على اعتبار أنّ كتابات الرجل قد تنوّعت من حيث الشكل بين كتبٍ، ومقالاتٍ، ورسائل، وخطابات، ومخطوطات، واختلفت من حيث موضوع الدراسة، إذ غطّت مجالات متعدّدة مثل المنطق الرياضي، والفلسفة، والأخلاق، والسياسة؛ بل الرواية، فإنّ المشتغل على متن برتراند راسل مُلزَمٌ، في اعتقادنا، بوضع حدود لبحثه[1].

سنحاور، إذاً، برتراند راسل من خلال مؤلَّفه (**العلم والدين**)، الذي يلقي الرجل، من خلاله، بعضاً من الضوء على خفايا علاقة متوتّرة أسالت الكثير من المداد خلال تاريخ الفكر الإنساني.

بصبغته الراهنيّة، يعدُّ كتاب (**العلم والدين**) محاولة لإعادة رسم مسار محطّات الصراع، الذي قام بين رجال الدين، ورجال العلم، خلال القرون الأربعة الأخيرة، إنّه، باختصار، محاولة لتقييم أثر علم اليوم في طيولوجيا اليوم[2]. لم يُوجَد، بعد أفلاطون، فيلسوف اتّسمت أفكاره بصعوبة التلخيص والجمع مثلما هو حال أفكار راسل، وهو ما حذا بألفرد وايتهيد (Alfred Whitehead) (1861-1947م) إلى وصف راسل بأنّه عبارة عن حوار أفلاطوني في ذاته[3]. ننبّه، في البداية، إلى أنّ الأمر يتعلّق، في هذه المقالة، بعرض لتصوّرات راسل حول علاقة الدين بالعلم، ومحاولة فهمها، وليس بمقاربة نقدية لهذه التصوّرات؛ لأنّ فلسفة الرجل -كما ألفيناها- قد لا تترك إلا حيّزاً ضيّقاً للنقد بمعناه التقليدي[4]. وعليه، التزمنا، عن وعي، ونحن نعيد رسم ملامحَ تصوّر راسل لعلاقة العلم بالدين، بأن نكونَ مجرّد واصفين أُمناء، إيماناً منّا بأنّ القراءة الواصفة الرصينة هي بمنزلة الألف في أبجديات البحث العلمي.

---

1 Venant Denis, Bertrand Russell, éditions Flammarion, Paris, 2003, p. 11.

2 Russell Bertrand, Science et religion, Traduit de l’anglais par Philippe-Roger Mantoux, Gallimard, 1971, p. 189.

3 Wood Alan, Préface in: Russell Bertrand, Histoire de mes idées philosophiques, Traduit de l’anglais par Georges Auclair, Gallimard, 1961, p. 340.

4 Ibid. p 332.

1- في التقابل بين العقيدة الدينية والنظرية العلمية:

يصوّر العلم والدين وجهين متقابلين للحياة الاجتماعية. ظاهرياً، قد يبدو أنّ الحقيقتين العلمية والدينية تنتميان إلى عالمين مختلفين ومتعارضين، وهو اختلاف يتجسّدُ على مستوى المناهج المعتمدة، والغايات المرجوّة. إذا كان العلم يريد/يقدّم معرفة بالطبيعة، فإنّ الدين يريد/يقدّم معنىً للحياة.

كلّما عُدنا بالزمن إلى الوراء علَت قيمة الدين. أمّا العلم، فعلى العكس من ذلك؛ إذ بعد وجود باهت ومتقطّع عند العرب والإغريق اكتسب، بشكلٍ مفاجئ، أهميّةٍ قصوى، بدءاً من القرن السادس عشر الميلادي، ومنذ ذلك الوقت استطاع العلم تشكيل أفكارنا والمؤسسات التي نعيش داخلها بشكلٍ دائم[5].

يُعدُّ الدين، من وجهة نظر اجتماعية، ظاهرة أكثر تعقيداً من العلم، حيث يعتقد راسل أنّ كلّ الديانات التاريخية الكبرى يمكن أن تُختزَل في ثلاثة مظاهر: سلطة كنسية، وعقيدة، وقانون أخلاقي فردي. إنّ الأهميّة النسبية، التي لهاتِه المظاهر، تغيّرت كثيراً حسب العصور والأمكنة؛ فإذا كانت الديانات القديمة في اليونان وروما، قبل أن تصبح أخلاقية من عند الرواقية، لم تحتفِ كثيراً بالأخلاق الفردية، فإنّ الكنيسة، أو السلطة الدينية في الإسلام، لم تحظَ بأهميّة كبرى مقارنةً بالسلطة الدنيوية. أمّا في البروتستانتية الحديثة فإنّ صرامة العقائد قد لانت[6].

تمثّل العقائد المنبع الفكري للصراع بين الدّين والعلم، لكنّ حدّة المقاومة مصدرها الأساس ارتباط العقائد بالكنائس والقوانين الأخلاقية. إنّ الذين يشكّكون في العقائد يضعفون سلطة رجال الدين فتقلُّ مداخيلهم، كما أنّهم يقوّضون الأخلاقية؛ لأنّ رجال الدين يستخلصون مقابلاً عن الواجبات الأخلاقية للعقائد؛ ولذلك امتلك سلاطين الدنيا، كما آباء الكنيسة، مبرّرات معقولة للخوف من العقائد الثورية لرجال العلم[7].

اتّخذت الصراعات مع العلم، بالنسبة إلى الديانة المسيحية، شكلين: الأوّل أن نصادف في الإنجيل نصّاً يؤكّد واقعةً محدّدةً مثل أنّ الأرنب يجترّ، حيث إنّ هذه الوقائع عندما تُنقَض بالملاحظة العلمية تحرج أولئك الذين يؤمنون بأنّ كلّ كلمةٍ في الإنجيل وحي إلهيّ. عندما تكون هذه التأكيدات الواردة في الكتاب المقدّس غير ذات أهمية دينية في حدِّ ذاتها يكون من السهل إيجاد تفسير مقبول لها، أو تجنب الجدل بإقرار أنّ الإنجيل لا يمثّل سلطة علمية؛ بل دينية وأخلاقية فحسب. أمّا الشكل الثاني، فيصبح الصراع فيه أكثر جديّة، عندما يشكّك العلم في عقيدة مسيحية مهمّة، أو تصوّر فلسفي يعدّه اللاهوتيون ضرورياً لصلاح

5 Russell Bertrand, Science et religion, op. cit. p. 7.

6 Ibid. p. 8.

7 Ibid. p. p. 8-9.

العقيدة. عموماً، كانت نقاط الخلاف بين الدين والعلم من النوع الأوّل، لكنّها اتّسعت لتطال مواد تُعَدُّ جزءاً من العقيدة المسيحية[8].

إذا كان المؤمنون، في عصرنا، يرون أنّ الجزء الأكبر من العقيدة المسيحية، كما عاشت في القرون الوسطى، غير نافع؛ بل يمثّل عائقاً في الحياة الروحية، فإنّ نسق الأفكار، آنذاك، هو ما جعل مقاومة الدين للعلم أمراً منطقياً. يتعيّن علينا، إذاً، لفهم المقاومة التي تلقّاها العلم، التغلغل بخيالنا داخل نظام الأفكار، التي جعلت من هذه المقاومة منطقية. إنّ التجربة أظهرت أنّه من الخطر الانطلاق من مبادئ عامّة، أو التصرُّف بوساطة الإسقاط أو الاستقراء. بدايةً؛ لأنّ المبادئ يمكن أن تكون زائفة، ثمّ لأنّ البرهان يرتكز على مبادئ يمكن أن تكون خاطئة. لقد اعتمد اللاهوت الوسيطي على عنصر الوحدة المنطقية عبر الاستنباط، وذلك خلافاً للعلم الذي اعتمد على الاستقراء؛ لأنّ التجربة أثبتت أنّ من الخطير الانطلاق من المبادئ العامّة. إنّ العلم لا ينطلق من فرضيات عامّة؛ بل من وقائع فردية مكتشفة بالملاحظة والتجريب[9]. إذا كانت المبادئ الأكثر عمومية هي نقطة انطلاق الفكر الوسيطي، فإنّ تلك المبادئ تمثّل، بالنسبة إلى العلم، نتيجة مؤقّتة مع احتمال أن تصبح، لاحقاً، حالة خاصّة لقانون أكثر عمومية[10].

مثّل القديس توماس الأكويني (Thomas d'Aquin) (1225م-1274م) المؤوّل المعتمد للعقيدة التي كان العلم ملزماً بمهاجمتها. لقد كان يدعم-كما تعتقد الكنيسة الكاثوليكية إلى اليوم - أنّ بعض الحقائق الأولى للديانة المسيحية يمكن البرهنة عليها بالعقل فحسب، دون اللجوء إلى الوحي. من بين هذه الحقائق نجد وجود خالق قاهر وخيّر، وعليه لم يكن هذا الخالق ليدع مخلوقاته دون معرفة بقراراته التي تجعلهم خاضعين لإرادته. سيكون ضرورياً، إذاً، وجود شريعة إلهية هي المتضمّنة بدهياً في الإنجيل، وفي قرارات الكنيسة. أمّا الباقي ممّا نحتاجه، فيمكن استخلاصه من الكتابات، ومن مقرّرات المجامع المسكونية[11].

تختلف العقيدة الدينية عن النظرية العلمية؛ لأنّها تزعم التعبير عن حقيقة أزلية ويقينية إطلاقاً. في حين أنّ النظرية العلمية تحتفظ بطابعها المؤقّت؛ إذ تنتظر القدوم الضروري لتعديلات، كما تعي كلّ نظرية علمية أنّ منهجها، منطقياً، غير قادر على بناء استدلال تامٍّ ونهائي[12].

8 Ibid. p. 9.
9 Ibid. p. 10.
10 Ibid. p. 12.
11 Ibid. p. p. 10-11.
12 Ibid. p. 12.

إنّ هناك فرقاً مهمّاً بين وجهة النظر الوسيطية، ووجهة نظر العلم الحديث، وهو يهمُّ، أساساً، مسألة السلطة. بالنسبة إلى السكولائيين؛ فالإنجيل، وعقائد الإيمان المسيحي، وفي الدرجة نفسها، تقريباً، التصوّرات الأرسطية، كانت جميعها غير قابلة للنقاش؛ لذلك كان على دراسة الوقائع ألّا تتجاوز حدوداً معيّنة للجرأة الفكرية[13]. هل لكوكب المشتري أقمار تدور في فلكه؟ هل تتساقط الأجسام بشكل يتناسب مع كتلتها؟ مثل هذه الأمور، في القرون الوسطى، لا تُحلُّ بالملاحظة؛ بل بالاستنباط من كتابات أرسطو، والكتاب المقدّس. كان الصراع بين الدين والعلم صراعاً بين السلطة والملاحظة، حيث كانت الافتراضات تصحُّ لدى العلماء ليس بدعم من سلطة معيّنة؛ بل لأنّ شهادة الحواس تقول ذلك[14].

لقد حقّقت هذه المنهجية نجاحات كُبرى ومتتالية، إن على المستوى النظري أو العملي؛ ما فرض على اللاهوت أن يتأقلم تدريجياً مع العلم، حيث بدأ تفسير النصوص الإنجيلية المحرجة بشكل استعاري ورمزي، ثمّ قام البروتستانت بنقل السلطة الدينية الممثّلة في الكنيسة والإنجيل معاً إلى الإنجيل وحده، وإلى روح الفرد أخيراً. وعليه، سيتخلّى الدين عن معاقله للحفاظ على القلعة، حيث سيفهم، شيئاً فشيئاً، أنّ الحياة الدينية لا علاقة لها بالموقف من أسئلة الوقائع، مثل الوجود التاريخي لآدم وحواء[15].

يرى راسل أنّ هناك شكلاً معيّناً من أشكال الحياة الدينية (وربّما هو الشكل الأهم)، بقي مستقلاً عن الاكتشافات العلمية؛ إذ بإمكانه الاستمرار في الوجود مهما كانت قناعاتنا المستقبلية بخصوص طبيعة الكون. لم يرتبط الدين في الماضي بالعقائد وبالكنائس، بل بالحياة الشخصية للمؤمن؛ لذلك نجد، لدى أكبر وأعظم القديسين والمتصوّفة، مزيجاً من الإيمان بعقائد معيّنة جنباً إلى جنب مع تصوّرات تهمُّ الغايات من الوجود الإنساني. إنّ كلّ إنسان يُدرك بعمق مشكلات المصير الإنساني، ويمتلك رغبة في التخفيف من معاناة الإنسانية، ويحدوه أمل في كون المستقبل يخبئ للجنس البشري أفضل إمكانات التحقُّق، هذا الإنسان هو مالك، في حكم فيلسوفنا، لبذور فكر ديني حتى ولو كان لا يقبل إلا نزراً قليلاً من العقيدة المسيحية التقليدية. كلّما أصبح الدين، حسب راسل، مجرد حالة ذهنية، وتخلّى عن كونه مجموعة عقائد، صعب على العلم الانتصار عليه[16].

لقد مثّل مفكرون أحرار بحياتهم التحقُّق الفعلي للدّين، بوصفه حالة ذهنية، في غير ارتباط، قطعاً، مع عقيدة دينية ما. وإذا كانت المعتقدات اللاهوتية دون أساس، فإنّها لن تصلح لأن تكون ضرورية للحفاظ على الحالة الذهنية الدينية. إنّ الاعتراض على هذا الرأي معناه، في نظر راسل، أنّ الخوف يغمرنا

13 Ibid. p. 13.
14 Ibid. p. 13.
15 Ibid. p. 14.
16 Ibid. p. 14.

بخصوص ما يمكن أن نكتشفه، وهي مخاوف تعوق محاولاتنا لفهم العالم، ولكن، بفهمنا للعالم فحسب، ستكون الحكمة ممكنة[17].

اتّسمت الحرب بين العلم والدين بميزة خاصّة، حيث، باستثناء فرنسا نهاية القرن الثامن عشر، وروسيا السوفييتية، ساند أغلبية رجال العلم العقائد الدينية التي عاصروها. لقد كانت الحرب قائمة بين الدين والعلم، لا بين الدين ورجال العلم، فمع دفاع رجال العلم عن تصوّرات علمية مُدانة من قِبَل رجال الدين نجدهم قد بذلوا جهداً كبيراً لتجنُّب الصراع مع الدين. من سمات هذه المهادنة نتذكر، على سبيل المثال، مواقف إسحاق نيوتن (Isaac Newton) (1643-1727م)، وإهداء نيكولا كبرنيك (Nicolas Copernic) (1473-1543م) كتابه إلى البابا، وتراجع جاليلي جاليليو (Galilée Galileo) (1564-1642م) عن آرائه، وصمت رينيه ديكارت (René Descartes) (1596-1650م) المحسوب، الذي مكّنه من تجنُّب متابعة رجال الدين له بسبب إيمانه بتصوّرات جاليلي[18]. خلال القرن التاسع عشر، كان أغلبية رجال العلم البريطانيين يعتقدون بأنّه لا وجود لتناقض جوهري بين علمهم وبين مقتضيات العقيدة المسيحيّة، التي يَعدّها المسيحيون المتحرّرون جوهرية، حيث وجد هؤلاء السبيل للتضحية بحرفية الإيمان في قصّة الطوفان، وقصّة آدم وحواء مثلاً[19].

بخصوص وضعنا الحالي، يرى راسل أنّه لا يختلف كثيراً عمّا كان عليه الحال منذ انتصر نظام كبرنيك الفلكي. إنّ الاكتشافات العلمية المتتالية دفعت المسيحيين للتخلّي عن عقائدهم الواحدة بعد الأخرى؛ وهي العقائد نفسها التي كانت الكنيسة، في القرون الوسطى، تعدُّها أجزاء لا تتجزّأ من أنموذج الإيمان المسيحي. عموماً، وباستثناء أولئك العلماء الذين تتموقع أعمالهم في الحدود المتنازع عليها بين الدين والعلم، مكّنت هذه التراجعات المتتالية رجال العلم من البقاء مسيحيين[20]. اليوم، وكما كان الحال، غالباً، خلال القرون الثلاثة الأخيرة، يُقال: إنّ العلم والدين قد تصالحا، حيث يُقرُّ العلماء، دون تعقيدات، بوجود مجالات خارجية بالنسبة إلى العلم، في حين أنّ رجال الدين المتحرّرين يقبلون، برضا، كلّ ما يمكن للعلم إثباته. لكن هذه المصالحة يعكِّر صفوها، بين الفينة والأخرى، فريقان من المتطرّفين؛ فمن جهة نجد رجال الدين المتعصبين من الكاثوليك والبروتستانت معاً، ومن جهة أخرى نجد الأكثر تعصّباً من المتخصّصين في مجالات دقيقة، مثل الكيمياء العضوية، وعلم النفس الحيواني، يصرّون على رفض الأفكار الدينية حتى في مستواها البسيط.

17 Ibid. p. 15.
18 Ibid. p. 126.
19 Ibid. p. p. 126-127.
20 Ibid. p. 127.

لقد ورثت الشيوعية والفاشية التعصُّب والاضطهاد، حيث يشترك الأساتذة والأساقفة لا شعورياً في الرغبة في الحفاظ على الوضع كما هو عليه[21].

يدخل برتراند راسل في سجال مع مجموعة من الدارسين ممّن تناولوا علاقة الدين والعلم، حيث يورد، مجادلاً قولة القسّ ستريتر (Streeter)، أنّ «العلم وحده لا يكفي»، ثمّ رأي السير آرثر تومسون (Arthur Thompson) بأنّ العلم لا يطرح سؤال الغاية والمعنى، وأنّه لا يمكنه أن يزعم أنّه أساس للحقيقة. فالعلم لا يمكنه تطبيق مناهجه على ما هو روحي وصوفي، كما يعرج على تصوّر الأستاذ مالينوسكي (Malinowski)، الذي مفاده أنّ الكشف الديني تجربة شخصية، وهي، بحكم مبدئها، توجد خارج مجال العلم[22]. في معرض ردّه على القسّ ستريتر، يصادق راسل على قولة «ليس بالعلم وحده يحيا الإنسان»؛ لأنّها أمرٌ مفروغٌ منه. إنّ العلم لا يشتمل على الفن، ولا الصداقة، ولا عناصر ثمينة أخرى من الوجود الإنساني. لكنّ القس يقصد ما هو أكثر؛ بل ما هو أهم من هذا المعنى؛ إذ يرى وجود معنىً آخر أكثر أهمية يجعل العلم غير كافٍ. صحيحٌ أنّ العلم، في حكم راسل، غير كافٍ؛ إذ ليس لديه ما يقوله في مجال القيم، فهو لا يستطيع البرهنة على كون الحبّ أفضل من الكراهية، أو أنّ الرأفة أفضل من القسوة. يمكن للعلم أن يمدّنا بالكثير بخصوص وسائل تحقيق رغباتنا، لكنّه لا يمكنه البت فيما إذا كانت رغبة أفضل من أخرى[23]. إنّ الذين يقولون إنّ العلم لا يمكنه زعم أنّه أساس الحقيقة إنّما يؤكّدون وجود منهج آخر غير علمي لبلوغ الحقيقة، وهذا المنهج لن يكون سوى الوحي الديني[24]. خلافاً لذلك، يعلن فيلسوفنا، دون مواربة، أنّه لا يستطيع الاعتراف بغير الأسلوب العلمي سبيلاً لبلوغ الحقيقة[25]. فعلى الرغم من كون راسل لا ينكر قيمة التجارب، التي كانت سبباً وراء ميلاد الدين في مجال العواطف، فإنّ هذه العواطف ارتبطت، في نظره، بمعتقداتٍ خاطئة خلقت الشرَّفي العالم أكثر ممّا خلقت الخير[26]. إذا كان الوحي الديني، حسب العميد إنج (Inge)، يوجد خارج مجال العلم، فإنّه لن يكون هناك مدعاة للصراع بين العلم والدين، بحكم أنّ الأوّل يبحث في الوقائع، والثاني يبحث في القيم، وبحكم أنّ حقيقتيهما معاً مقبولة؛ لأنّهما ينتميان إلى مستويين مختلفين. لكنّ هذا الأمر لا يُصدّق، بإطلاق، في حكم راسل؛ لأنّنا رأينا العلم يخترق أرض الأخلاق والشعر، وهو ما يقوم به الدين أيضاً. إنّ حديث العميد إنج يجرّنا، حسب راسل، إلى اقتضاء مفاده أنّه يتعيّن على الدين تأكيد ما هو قائم، وليس ما ينبغي أن يكون فحسب[27]. إنّ كلّ معرفة

21 Ibid. p. 127.

22 Ibid. p. p. 128-129.

23 Ibid. p. p. 128-129.

24 Ibid. p. 130.

25 Ibid. p. 139.

26 Ibid. p. 140.

27 Ibid. p. 130.

متاحة يجب أن يكون السبيل إليها سبيلاً علمياً، ووفق صورة منطقية يقرُّ مؤلِّف كتاب **(العلم والدين)** أنّ كلَّ ما لا يمكن للعلم أن يكتشفه لا يمكن للإنسانية معرفته[28].

2- الحرب بين الدين والعلم:

يعدُّ كتاب **(العلم والدين)** عملاً تأريخياً يقدِّم فيه راسل (الفيلسوف/الرياضي) دراسةً مختصرةً ودقيقةً للصراع بين العلم والدين في القرون الأربعة الماضية، وبالضبط بدءاً من الثورة الكبرنيكية، ووصولاً إلى المُنجزات الطبية المعاصرة. يقف راسل عند لحظات من تاريخ هذا الصراع جعلت الدين يراجع نفسه. إنّه تاريخ صراع ممتدّ كان العلم يخرج، دوماً، منتصراً فيه حسب راسل.

بدايةً، ينبّهنا راسل إلى أنّ العلوم قد تطوّرت بشكلٍ معكوس على ما نتوقّعه منها، حيث استطاع الإنسان التعرُّف إلى قوانين تحكم الأشياء البعيدة، أوّلاً، مثل السماء، ثم الأرض، والحيوان، والنبات، والجسم البشري[29].

كانت أوّل معركة وأبرزها بين الدين والعلم هي الصراع الذي قام حول نظرية كبرنيك القائلة بمركزية الشمس. والجدير بالذكر أنّها نظرية كان قد نسبها تلامذة فيثاغوراس إلى أستاذهم، لكن أوّل قائلٍ بها صراحةً كان أرسطارخوس الساموسي (ق 3 ق. م)، وقد اتُّهم هذا الفلكي، نتيجةً لذلك، بالكفر كما هو حال جاليلي جاليليو، حيث أدانه الفيلسوف الرواقي كليونث (Cléanthe) (330-232 ق.م)، ولكن لحسن حظّه لم يُحاكَم؛ لأنّه عاش عصراً لم يكن للمتعصّبين فيه نفوذ[30].

لقد أحرجت اكتشافات جاليلي جاليليو الداعمة لنظرية كبرنيك رجال الدين، فبما أنّ الله لا يفعل شيئاً عبثاً، فإنّه من الواجب أن نفترض أنّ الكواكب الأخرى لابدّ من أنّها آهلة بالسكان، لكن هل سكانها من نسل نوح؟ هل وصلهم المخلِّص؟ هي نماذج من شكوك ولّدها حبُّ الاستطلاع الوقح لجاليلي جاليليو[31]. لكن على الرغم من تتالي الحقائق العلمية المعزّزة لنظرية مركزية الشمس، استمرّت الكنيسة الكاثوليكية في حظر تدريس فكرة دوران الأرض إلى سنة (1835م)[32].

28 Ibid. p. 180.
29 Ibid. p. 38.
30 Ibid. p. p. 16-17.
31 Ibid. p. 29.
32 Ibid. p. 32.

أمّا في البيولوجيا، فقد وجّهت نظرية داروين للعقائد الدينية ضربة أقسى من الضربة التي وجهها لها كبرنيك في الفلك، حيث لم تُلزِمنا هذه النظرية، فحسب، بضرورة التخلّي عن فكرتي ثبات الأنواع والأشكال المتنوّعة للخلق، كما أثبتها سفر التكوين، ولم تلزمنا، فحسب، بالتخلّي عن ترسانة من الحجج الداعمة لفكرة الرعاية الإلهية القائمة على واقعة التكيُّف المثالي للحيوانات في أوساط حياتها، وهو ما يُفسَّر اليوم بمبدأ الاصطفاء الطبيعي؛ بل إن نظرية التطوّر في صورتها الداروينية ادّعت، بجرعة مفرطة من الجرأة، أنّ الإنسان ينحدر من القِردة، التي هي حيوانات أدنى منه في سلسلة التطوّر. لقد ركّز رجال الدين والعامّة سهام نقدهم على هذا الجزء بالضبط من نظرية التطوّر الداروينية، ليردّوا هذا الأمر إلى الشبه الكبير الحاصل بين داروين نفسه والقرد[33].

أدرك رجال الدين رهانات عملية الإصلاح بوضوح يتجاوز ما فهمه العامّة من فكرة الاصطفاء الطبيعي، فنبّهوا، في ردودهم، على امتلاك الإنسان روحاً خالدة ليست للقردة، وأنّ المسيح قدّم روحه لتخليص الإنسانية لا القردة، وأنّ الله حَبَا الإنسان بقدرة على التمييز بين الخير والشر، في الوقت الذي تنقاد فيه القردة لغريزتها. سيدفع رجال الدين بسهام نقدهم إلى أقصى مداها عندما سيلزمون أنصار التطوّر بإحراج مقتضاه: إذا كان القرد قد تحوّل بشكل غير ملحوظ، على مدى زمني طويل، إلى إنسان، فمتى اكتسب القرد خصائص الإنسانية المهمّة جدّاً في تصوّر رجال الدين[34]. كما يحدث غالباً، تنبّه خصوم العلم بشكلٍ أسرع من أنصار نظرية التطوّر لتداعيات هذه النظرية، على الرغم من أنّ أكثرية هؤلاء المقتنعين بوجاهة أدلّة داروين لم يتخلّوا عن إيمانهم بالعقائد المسيحية؛ بل اجتهدوا بكلّ صدق للاحتفاظ بمعتقداتهم القديمة. إنّ رجالات القرن التاسع عشر، كما يتصوّرهم راسل، لم يكونوا ثوريين، سواء على المستوى الفكري، أم على المستوى السياسي، لكنّهم، على الرغم من ذلك، كانوا مستعدين لقبول الإصلاح كلما كانت الحاجة إليه ضرورية[35].

يشير راسل إلى أنّ الدين، في عصرنا، قد أصبح يشارك في التطوّر بدوره؛ بل، في الوقت نفسه، أخذ من التطوّر عدّة حجج، حيث يخبرنا رجال الدين أنّ هناك غاية واحدة تسري في كلّ العصور، وأنّ التطوّر مجرّد كشف عن فكرة كانت موجودة في عقل الإله منذ البداية. يوجه راسل إحراجاً لرجال الدين المعاصرين مقتضاه: لماذا فضّل الخالق انتظار تحقيق هدفه عبر مراحل عوض الاتجاه مباشرة منذ البدء لما يريد خلقه؟ كما أنّ هؤلاء، في تصوّر راسل، لا يخبروننا بالكثير للتخفيف من شكوكنا حول روعة النتيجة المزعومة في فعل الخلق. أمّا الاعتراض الأكثر جدّية، الذي يواجه كلّ لاهوت ينبني على نظرية التطوّر، في تصوّر

33 Ibid. p. 57.

34 Ibid. p. p. 58-59.

35 Ibid. p. 58.

راسل، فهو الانسياق غير محسوب العواقب وراء فكرة التقدُّم اللانهائي كتعميم مبسّط لما يجري في الحياة اليومية، في الوقت الذي ينتبه فيه أهل الفكر إلى أنّ القوانين نفسها، التي تنتج النمو، تنتج، أيضاً، الانحسار والأفول. سينفي راسل، إذاً، وجود قوانين كونية تثبت حدوث التقدُّم بإطلاق، فما يوجد هو قوانين تكشف بوضوح عن تقلُّب وتأرجح، باستمرار، بين الصعود والهبوط. إنّ التطوّر، وفق ما توصلنا إليه من معارف لا يصلح، بتاتاً، أساساً لفلسفة تفاؤلية[36].

بعيداً عن الفلك والبيولوجيا، كان على الدراسة العلمية للجسم البشري وأمراضه، ولا يزال، أن تتواجه مع مجموعة من الخرافات، في أغلبها، سابقة لظهور الديانة المسيحية، لكنّها لقيت الدعم إلى عهد قريب من طرف السلطة الكنسية. لقد اعتبر المرض اختباراً في شكل عقاب إلهي لمرتكبي المعاصي، وبما أنّ المرض شيطاني الأصل، فإنّ الشفاء منه لا يمكن أن يتمّ إلا بتدخُّل القديسين، سواء بشخصهم، أم بالتبرُّك بما تركوه من أشياء، أو عبر الصلاة والحج، لطرد الشياطين من الجسم. لقد وجد جزء كبير من هذه الممارسات تبريره فيما ورد في الأناجيل، على أنّ آباء الكنيسة تكلّفوا إكمال الباقي، ونشر هذه الخرافات، حيث دافع القديس أوغسطين (Saint Augustin) (354-430م)، مثلاً، عن كون الشياطين سبب الأمراض التي تلحق بالمسيحيين؛ إذ كانت تصيب، في نظره، المسيحيين حديثي التعميد[37].

يحيل لفظ (شياطين)، في كتابات آباء الكنيسة، على آلهة الوثنيين، التي أغضبها انتشار المسيحية، حيث لم ينفِ المسيحيون الأوائل، قطعاً، وجود آلهة الأولمب، لكنّهم اعتبروها خادمة للشيطان، وهي الصورة نفسها التي رسمها لهم الشاعر الإنجليزي جون ميلتون (Jean Milton) (1608-1674م) في **الفردوس المفقود** (*Le paradis perdu*)[38].

لقد دافع القديس غريغوريوس النازينازي (Saint Grégoire de Nazianze) (330-390م) عن كون الطب غير ذي نفع، في مقابل وضع الأيادي المباركة، التي غالباً ما تكون فعّالة؛ لذلك ازداد الإيمان بفعالية التبرُّك ببقايا القديسين ومخلّفاتهم خلال القرون الوسطى؛ بل إنّ هذا الضرب من الإيمان لم ينقرض بعد. لقد كان تصرُّف الكنيسة، في هذه البقايا والمخلّفات، مصدر دخل لها[39].

في حديثه عن معجزات القديسين، يصرّح راسل بأنّه مدين للديبلوماسي والمؤرّخ الأمريكي الحديث أندرو ديكسون وايت (Andrew Dickson White) (1832-1918م)، الذي سبق له أن عالج هذا

36 Ibid. p. p. 60-61.

37 Ibid. p. 62.

38 Ibid. p. p. 62-63.

39 Ibid. p. p. 62-63.

الموضوع بتفصيل في مؤلّفه (**حرب العلم ضد الطيولوجيا**) (**La guerre de la science contre la théologie**)[40].

في القرون الوسطى، كان يُفسَّر انتشار الطاعون والأوبئة، التي كانت ذائعة ومخيفة آنذاك، باعتباره فعلاً شيطانياً، أو غضباً إلهياً. وعليه، زعمت الكنيسة أن التخلّي عن الأراضي لصالحها هو الوسيلة الناجعة للتخلُّص من الغضب الإلهي[41]. خلال القرن الرابع عشر، ومع انتشار موجة الطاعون الأسود، اعتقد بعض المسيحيين أنّ قتل اليهود سيدفع هذا الغضب الإلهي الذي حلّ بأوروبا، حيث تمّ قتل عشرات الآلاف منهم لتتوقّف عملية الإبادة الجماعية هاته بتدخّل شخصي من البابا الذي اعترض عليها[42]. إن انتشار هذه المناهج الخرافية وقف عائقاً في وجه الدراسة العلمية للجسم، التي يمثّلها كلّ من الطب والتشريح[43]؛ لذلك حُورب التشريح، أيضاً، بذريعة أنّه يحول، في نظر رجال الدين، دون حدوث بعث الأجسام بعد الموت[44].

ارتبط الإيمان بالسحر في القرون الوسطى بمرض الجنون، وقد تمّ توظيف ما ورد في (**سفر الخروج**) حول حرب الساحرات في متابعة المعتقدين في السحر، باعتبارهم لا يؤمنون بصحة ما ورد في الكتاب المقدّس[45]. يذكر راسل أنّ الممارسات السحرية في أوروبا القرون الوسطى، حسب بعض أفضل المتخصّصين في هذا المجال، ما هي إلا استمرارية للممارسات، التي كانت مختلطة بعقائد الوثنيين[46]. نشير، أيضاً، في هذا السياق، إلى أنّ ممارسة السحر لم تكن، في البداية، جريمة نسائية بامتياز، لكنّها أصبحت، كذلك، بدءاً من القرن الخامس عشر الميلادي، لتستمر، بحدّة، حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي، حيث كانت أكثر التهم ذيوعاً ضد النساء هي التسبُّب في الاضطرابات الجوية[47].

لقد تعدّدت نقاط التماس والمواجهة بين الدين والعلم، حيث انتفضت الأحكام اللاهوتية الموجّهة لرفض التلقيح ضد الجذري، فانتشرت المواعظ المهاجمة للتلقيح على أساس لاهوتي، بوصفه تحدٍّ للسماء، ولإرادة

40 Ibid. p. 64.

وهو الكتاب الذي ترجمه إسماعيل مظهر إلى العربية تحت عنوان: بين الدين والعلم: تاريخ الصراع بينهما في القرون الوسطى إزاء علوم الفلك والجغرافيا والنشوء، مؤسّسة هنداوي، القاهرة، 2012م.

41 Ibid. p. 65.

42 Ibid. p. 66.

43 Ibid. p. 66.

44 Ibid. p. 67.

45 Ibid. p. 68.

46 Ibid. p. 70.

47 Ibid. p. 70.

الله نفسها[48]. كما انتفضت الكنيسة، أيضاً، ضدّ اختراع التخدير، الذي جاء مخفِّفاً لمعاناة الإنسانية، حيث اعترض رجال الدين على استخدامه أثناء الوضع؛ لأنّ الله أخبر حوّاء-وفق ما ورد في (**سفر التكوين**) - أنّ ألماً سيرافق عملية وضعها لمواليدها[49].

إن تدخُّل رجال الدين في المسائل الطبية لم يتوقّف؛ إذ ما زال رجال الدين يعترضون على تحديد النسل بوصفه فعلاً ضدّ الطبيعة، وعلى السماح بالإجهاض في حالات خاصّة تحت طائلة نصوص إنجيلية، ومراسيم كنسية[50].

على واجهة أخرى، يورد راسل أنّ اللاهوت قد حاول قهر العلم من باب الأخلاقية، لكنّ العلم استطاع أن يخرج، دائماً، منتصراً في هذا الصراع؛ إذ يصعب على أولئك، الذين يؤمنون بأهمية العقائد الدينية -مع اعتقادهم بأنّ الله هو من يرسل الأمراض- أن لا يحاولوا تجنّب هذه الأمراض، والعلاج منها، بحجّة أنّ ذلك كفر[51].

كما شكّل الحديث حول الروح والجسد مناسبة أخرى للوقوف عند تعارض تصوّرات رجال الدين، ورجال العلم، منذ العصر الحديث. إنّ فكرة النفس، كما ظهرت في الفكر اليوناني، كان لها أصل ديني؛ إذ ظهرت أوّل مرة في تعاليم تلامذة فيثاغوراس، الذي آمن بالتناسخ، وابتغى الخلاص في التحرُّر من عبودية المادة. وقد تأثّر أفلاطون بالفيثاغورسية في قوله بالأصل الإلهي للنفس، وبفكرة كون الجسد مجرّد سجن. بعد أفلاطون، جاءت نظرية النفس في صورتها الأرسطيّة، ثمّ الرواقية، لتتداخل كلّ هذه المؤثرات مختلطة في صياغة تصوّرات آباء الكنيسة حول النفس، مع تميّز واضحٍ للأفلاطونية، بوصفها العنصر الوثنيّ الأكثر أهمية في فلسفة آباء الكنيسة[52]. بيد أنّ هذا الفرق القديم بين الروح والجسد قد تبخّر، في حكم راسل، ليس، فحسب، لأنّ مفهوم المادة فقد صلابته؛ بل لأنّ مفهوم الروح، أيضاً، قد فقد روحانيّته[53]؛ لذلك لا مكان للروح، ولا للجسد في العلم الحديث[54].

خلافاً للطريق الصوفي، حينما يخبرنا رجل العلم بنتائج تجاربه، فإنّه يخبرنا، أيضاً، بطريقة إجرائها بالشكل الذي يتيح للجميع التحقُّق منها بأنفسهم، عكس كلّ من يريد التوصُّل إلى حقائق بوساطة الإشراق

48 Ibid. p. p. 77-78.
49 Ibid. p. p. 78-79.
50 Ibid. p. 79.
51 Ibid. p. 81.
52 Ibid. p. 83.
53 Ibid. p. 98.
54 Ibid. p. 100.

الصوفي، حيث لا يُتاح للجميع بلوغ الكشف والرؤيا المنزّلة[55]. استرسالاً في نقاش لن يتوقف، سيردُّ المتصوّفة جدلاً أنّه يتعيّن على الباحث استعمال الحاسّة المناسبة، ذلك أنّ التلسكوب، مثلاً، سوف يكون عديم الجدوى لمن يغلق عينيه، لتظلّ حجّة المتصوّفة الأهم هي إجماعهم على تواتر صواب سبيلهم[56].

إنّ الفلسفة المؤسَّسة على التصوّف لها تقليد جميل يمتدُّ من بارمنيدس إلى هيجل، حيث يعتقد بارمنيدس أنّ ما هو موجود هو غير مخلوق، وغير فان؛ لأنّه تامٌّ وثابت، ولا متناهٍ. إنّ الموجود لم يكن، ولن يكون؛ لأنّه كائنٌ عبارة عن كلّ مستمر. بهذا الشكل أقحم بارمنيدس، في كلّ الميتافيزيقا، تمييزاً بين الظاهر والحقيقة، أو كما يسميهما هو، بين طريق الرأي وطريق الحقيقة. إنّ كلَّ من ينفي واقعة الزمن يتعيّن عليه تبنّي هذا التمييز؛ لأنّه من البدهي أنّ العالم موجود في زمن. من البيّن، أيضاً، أنّه إذا كانت التجربة اليومية ليست تماماً واهمة، فإنّه يتعيّن وجود علاقة بين الظاهر والحقيقة التي يخفيها، ومن هنا، بالضبط، تنشأ الصعوبات في نظر راسل[57].

عندما يقابل المتصوّفة لفظ (حقيقة) بلفظ (ظاهر)، فإنّهم لا يقصدون بذلك المعنى المنطقي؛ بل المعنى العاطفي؛ إذ تحيل لديهم على ما هو مهمّ بمعنى ما؛ لذلك عندما يقول المتصوّفة إنّ الزمن غير حقيقي، فإنّهم يبتغون معنىً محدّداً في سياق محدَّدٍ مقتضاه أنّه من المهمّ أن نتصوّر الكون ككلّ مثلما تصوّره خالقه عندما قرّر خلقه، حيث يفقد الحاضر سلطته في تمثيل الحقيقة كما نتصورها وفق طريقتنا في تمثُّل العالم. اعتباراً من هذا التأويل، نفهم أنّ التصوّف مبنيّ على عاطفة، وليس على واقعة، فهو لا يؤكّد شيئاً؛ لذلك لا يمكن للعلم إثباته، ولا نقضه[58].

إنّ يقين المتصوّفة وإجماعهم الجزئي ليسا حجتين كافيتين تجعلاننا نقبل شهادتهم حول الوقائع. إنّ رجل العلم عندما يريد أن يرى الآخرون ما رآه يضع منظاره أو مجهره؛ أي أنّه يُدخِل تغييرات على العالم الخارجي، دون أن يُلزم الرائي بأكثر من قوّة بصره العادية؛ في حين نجد المتصوّف، على العكس من ذلك، يفرض تغييرات على الرائي نفسه عبر الصيام، أو تمارين تنفسية، أو التوقُّف التامّ عن ملاحظة العالم الخارجي[59].

55 Ibid. p. 131.
56 Ibid. p. p. 131-132.
57 Ibid. p. 136.
58 Ibid. p. 137-138.
59 Ibid. p. 138.

في مستوى آخر، قد يشترك رجال العلم المعاصرين مع رجال الدين المتحرّرين في الإيمان بفكرة الغاية الكونية[60]، لكنّ راسل يوجه نقداً من الممكن اختزاله في مسألتين لفكرة الغاية الكونية، وهما كالآتي: في مستوى أوّل، اعتقد أنصار القول بهذه الفكرة، دائماً، أنّ العالم سيستمر في تطوّره في الاتّجاه نفسه كما هو عليه الحال اليوم، وهو اعتقاد خاطئ. وفي مستوى ثانٍ، اعتبر هؤلاء، أيضاً، أنّ كلّ ما وقع يثبت النوايا الحسنة للكون، وهو أمرٌ غير صائبٍ، أيضاً، في حكم راسل[61]. إنّ ثورة كبرنيك لن تكتمل ما لم تعلّم الناس تواضعاً أكبر ممّا نراه لدى أولئك الذين يرون في الإنسان دليلاً كافياً على وجود الغاية الكونية[62].

أمّا بخصوص أسئلة القيم المرتبطة بالخير والشر في ذاتهما، باستقلال عن نتائجهما، فيرى راسل أنّها أسئلة تقع خارج مجال العلم. لكن إذا كان راسل يتّفق مع رجال الدين حول الحدود الفاصلة بين العلم والدين، فإنّه يستخلص، في المقابل، من الفصل بين العلم والقيم نتيجة أخرى مفادها أنّ القيم تقع خارج مجال المعرفة تماماً، بمعنى أنّ القيم تخضع، حصراً، لسلطة العواطف والرغبات لا لسلطة الوقائع[63]. إنّ كلّ النظريات الأخلاقية ليست سوى محاولات غير ناجحة للهروب من الذاتية؛ بل إنّ هناك علاقة وطيدة بين الأخلاق والسياسة، فالأخلاق، في صورة من صورها، محاولة فرض الرغبات الجماعية على الأفراد، أو على العكس من ذلك، قد تكون الأخلاق محاولةً من الفرد لجعل رغباته متبنّاة من طرف باقي أفراد الجماعة[64]. إذا كان العلم بإمكانه معالجة أسباب الرغبات، ووسائل تحقيقها، فإنّه لا يمكن، في المقابل، أن يحتوي على أحكام أخلاقية خالصة؛ لأنّه يهتمّ، أساساً، بما هو صادق، وما هو كاذب[65].

رأينا مع راسل أنّه قُيِّضَ للعلم، منذ لحظة كبرنيك، أن يكون منتصراً في كلّ معاركه ضدّ الدين، حيث اختار العلم، بخصوص الأسئلة العمليّة المطروحة، كما هو الحال في السحر والطب، التخفيفَ من المعاناة الإنسانية، في حين شجّع الدّين الجانب الوحشيّ الطبيعي في الإنسان. إنّ ذيوع العقلية العلمية، خلافاً للعقلية الدينية، قد دفع بالوجود الإنساني إلى أفضل ممكناته[66].

إنّ الحرب بين العلم والديانة المسيحية شبه منتهية، لولا بعض المناوشات التي مازالت تنشب بين الفينة والأخرى على مناطق التماس بين العلم والدين. يرى راسل أنّ أغلب المسيحيين يرون أنّ دينهم قد استفاد من

60 Ibid. p. 141.
61 Ibid. p. 160.
62 Ibid. p. 165.
63 Ibid. p. 171.
64 Ibid. p. 172.
65 Ibid. p. 176.
66 Ibid. p. 181.

هذه الحرب، حيث استطاعت المسيحية التخلُّص من بقايا ورثتها من عصر بربري، وهي، الآن، قد شُفيَت من تلك الرغبة في ممارسة الاضطهاد. إنّ المسيحيين الأكثر تحرُّراً قد حافظوا على عقيدة لها قيمة كبرى، في نظر راسل، وهي عقيدة حبّ أقربائنا، كما أنّهم يعتقدون أنّ كلّ شخص جدير باحترامنا. في مستوى آخر، تتنامى داخل الكنائس شيئاً فشيئاً قناعة مفادها أنّ جميع المسيحيين يجب أن يعترضوا على الحرب، لتختزل العقيدة المسيحية، اليوم، في الدعوة إلى ثلاثية: الحبّ أوّلاً، والاحترام ثانياً، ثمّ السلام أخيراً[67].

لكن في الوقت الذي استطاعت فيه هذه الديانة القديمة تنقية نفسها من الشوائب، ولدت ديانات جديدة برغبة متحمسة في ممارسة الاضطهاد، ومحاربة العلم بشكل لا يقلُّ عما كان عليه الوضع في محاكم التفتيش زمن جاليليو. من مظاهر هذه الممارسات الاضطهادية نذكر: إذا ما قيل في ألمانيا إنّ المسيح كان يهودياً، أو في روسيا إنّ الذرة قد فقدت وجودها المادي، وأصبحت مجرّد سلسلة من الأحداث، فإنّ صاحب هذا القول يعرض نفسه لعقوبة صارمة جداً[68]. إنّ اضطهاد المفكرين في ألمانيا الهتلرية، أو روسيا الشيوعية، قد تجاوز، في نظر راسل، كلّ ما قامت به الكنيسة خلال المئتين وخمسين سنة الأخيرة[69].

يبقى الاقتصاد السياسي، في تصوّر راسل، هو العلم الذي يعاني أكثر من الاضطهاد المباشر؛ إذ يكفي أن يتبنّى المرء تصوّرات اقتصادية مخالفة للتوجُّهات الاقتصادية الرسميّة للدولة حتى يصبح عرضة للعقاب. ينبه راسل إلى أنّ التعبير كتابةً عن آراء شيوعية، حتى في بلده إنجلترا، يعرّض صاحبه لفقدان العمل، والزجّ به في السجن؛ بل إنّ القانون يتابع كلّ من ثبت في حقّه أنّه يمتلكها لا مؤلّفي هذا الضرب من الكتابات فحسب[70].

يمكن ردّ الاضطهاد الممارَس من طرف الكنيسة، في نظر راسل، إلى الأسباب الاقتصادية والسياسية؛ ذلك أنّ العلم قد حدَّ من سلطة الكنيسة على عقول الناس، وهو ما أدّى، في النهاية، إلى مصادرة ممتلكات كنسية في العديد من البلدان[71]. يعدُّ الخطر الذي يتهدّد الحرية الفكريّة، اليوم، أكبر بكثير ممّا كان عليه الوضع منذ (1660م)، لكنّه لم يعد يأتِ من الكنائس؛ بل من الحكومات التي أخذت عن السلطات الكنسية قدسيّتها. إنّ الواجب يفرض على رجال العلم الاحتجاج ضدّ جميع أشكال الاضطهاد الجديد عوض تهنئة بعضهم بعضاً بنهاية الاضطهاد في صورته القديمة[72].

---

67 Ibid. p. 183.
68 Ibid. p. 183.
69 Ibid. p. 184.
70 Ibid. p. 184.
71 Ibid. p. 185.
72 Ibid. p. 186.

3- العلم من صراع الدين إلى صراع التقنية:

بوساطة الملاحظة والاستدلال القائم عليها يتّخذ العلم، كغاية له، اكتشاف الوقائع الجزئية، ثمّ القوانين التي تربط هذه الوقائع بعضها بعضاً، والتي تتيح التنبّؤ بأحداث المستقبل. يرتبط هذا الشقّ النظري للعلم بالتقنية العلمية، التي تستخدم المعرفة العلمية لتنتج شروط رفاهية لم تكن متحقّقة في العصور ما قبل العلمية. إنّ سمة التقنية هي ما يُعطي أهمية قصوى للعلم حتى في عيون من ليسوا علماء[73].

في محاولته لمعرفة الواقع/الطبيعة، يستند العلم على الملاحظة والفرضية والتجريب لكي يلتزم أكثر بانضباط عقلاني ما؛ وهو في ذلك إنما يطمح إلى بناء نظريات كلية حتى ولو كانت بصلاحية مؤقتة فحسب. تجد الحقيقة العلمية نفسها اليوم أكثر فأكثر مشروطة بالتطورات التقنية التي تجعلها أكثر دقة؛ لذلك تخضع هذه الحقيقة، بوصفها تجريبية وعملية بالأساس، لتطور التقدم التقني والثقافي. بل إنّ ما نشهده، منذ فترة ليست باليسيرة، هو كون الحقيقة العلمية ذاتها تحوّلت إلى حقيقة تقنية عملية ونافعة. إنّ نفعية العلم ترتبط بهمٍّ اقتصادي واجتماعي يجعل الانشغال بالعلم والتقنية في تطوّر دائمٍ ومستمر. لقد ترك العلم البحث عن الحقيقة، وعليه، لم تبقَ المعرفة عبارة عن صورة ذهنية للكون، أو بحث في الأسئلة الأساسية المرتبطة بالأصول والغايات، بقدر ما أصبحت حلولاً ناجعةً لمشكلاتٍ عملية.

ينبهنا راسل إلى أنّ هذه النزعة البراغماتية الجديدة في العلم لم تكن حاضرةً لدى الروّاد الذين استطاعوا الإبداع؛ لأنّهم آمنوا بالحقيقة، التي أضحت بفعل حماستهم لها مطلقة شأنها شأن الحقيقة الدينية. هذه الرغبة في المعرفة والبحث عن الحقيقة قرّب الحقيقة العلمية من الحقيقة الدينية. لقد امتلك هؤلاء الروّاد إيماناً قويّاً بالحقيقة مشابهاً لإيمان المتديّنين بالإله، ومن هنا، إمكانية تحوّل هذه الحقيقة العلمية إلى دوغمائية علمية. إنّ الحدود بين النظرية، والعلمية، والعقيدة الدينية، قد ارتسمت بشكل جليّ، فهناك حيث تغيب المعرفة يوجد الاعتقاد، لكن في العمق يخاطر العلم إذا لم يلتزم بالبحث عن المطلق بالسقوط في دوغمائية دينية.

تظل الاختراعات التقنية المبنية على نتائج نظريات علمية قديمة شاهدة على كونها تحتوي على قدر معيّنٍ من الحقيقة العملية؛ لذلك يدفعنا العلم، تدريجياً، إلى التخلّي عن البحث عن الحقيقة المطلقة، وتعويضها بما يمكن تسميته الحقيقة التقنية القادرة على التنبؤ، والإبداع التقني[74]. تمثّل الحقيقة التقنية درجة من درجات الحقيقة؛ فكلّ نظرية تكون أكثر حقيقية إذا ما أنتجت شروط ميلاد أكبر عدد ممكن من الاختراعات النافعة، والتنبؤات الدقيقة. لقد توقّفت المعرفة عن كونها مرآة ذهنية للكون، لتصبح مجرد وسيلة لتطويع المادة. لكن

73 Ibid. p. p. 7-8.

74 Ibid. p. p. 12-13.

هذه التبعات المنهجية لم تكن لتظهر لروّاد العلم، حيث إنّ هؤلاء، ومع استخدامهم منهجاً جديداً للبحث عن الحقيقة، ظلّوا يرون في الحقيقة فكرة مطلقة شأنهم شأن خصومهم اللاهوتيين[75].

إنّ الصراع بين العلم والدين يدخل، اليوم، مرحلةً جديدةً لسببين اثنين: أوّلهما أنّ التقنية العلمية بدأت تمارس تأثيرات مهمّة على مسار الفكر العلمي، وثانيهما أنّ أديانًا جديدة بدأت تأخذ مكانة الديانة المسيحية، وبدأت تكرّر من جديد الأخطاء نفسها التي ارتكبتها المسيحية[76].

يتلمّس العقل العلمي مساره بحذر وحرص كبيرين يجعلانه بعيداً كلَّ البعدِ عن ادّعاء بلوغ الحقيقة، وعن الزعم القائل إنّ المعارف العلمية الأكثر وثوقاً هي صادقة قطعاً. إنّ العقل العلمي يُدرك جيداً أنّ كلَّ نظرية سيكون مآلها التصحيح طال الزمن أم قصُر، وأنّ هذا التصحيح يستلزم البحث الحرّ، والمناقشة الحرّة. لكن راسل ينبّه، في هذا المقام، إلى أنّ العلم النظري أنتج التقنية العلمية التي تخلّت عن سمة الحذر المميّزة للنظرية العلمية. لقد أحدثت النظرية النسبية، والنظرية الكمية، ثورة في فيزياء القرن العشرين، لكن المثير أنّ كلّ الاختراعات المؤسَّسة على الفيزياء القديمة لم تفقد بعد صلاحيتها. يذكرنا راسل، محتجّاً على صحة ما ذهب إليه، بتطبيق الكهرباء في المجال الصناعي، وفي الحياة اليومية، وأن هذا التطبيق ندين فيه لأعمال كلارك ماكسويل (Clerk Maxwell)، التي نُشِرت منذ سنة (1879م)، حيث لم تتوقّف أيّ من اختراعاته عن إثبات فعاليتها وصلاحيتها، على الرغم من قصور تصوّراته العلمية[77].

بفعل التقنية العلمية، أصبح الخبراء، وخلفهم الحكومات والشركات الكبرى، يفكّرون بطريقةٍ مخالفةٍ تماماً لطريقة رجال العلم. إنّها عقلية الواثق المتغطرس، والممتلك لقوّة ليس لها حدود، والمستمتع باستغلال المادة وتطويعها إلى أقصى حدّ ولو كانت إنساناً. قد يدّعي قائلٌ أنّها عقلية مخالفة تماماً للعقلية العلمية، لكن لا يمكن أن ننفي أنّ العلم هو من أسهم في خلقها[78]. إنّ الآثار المباشرة للتقنية العلمية لم تكن مبعثاً للسعادة تماماً، فمن جهة تمَّ تطوير أسلحة مدمّرة، مع تحويل جزء من نشاط الساكنة من نشاط سلمي إلى نشاط حربي لصنع الذخيرة، ومن جهة أخرى، وبفعل الرفع من الإنتاجية، كان من الصعب جدّاً استمرار النظام الاقتصادي القديم القائم على ندرة الإنتاج. إنّ هذا الصدام الحادّ مع الأفكار الجديدة هو ما زلزل توازن الحضارات القديمة، حيث دفع الصين إلى الفوضى، واليابان إلى اتّباع سياسة إمبريالية لا تقلُّ قسوة عن سياسة الغرب، وروسيا إلى محاولة إرساء نظام اقتصادي جديد، وألمانيا إلى محاولة التمسُّك بالنظام الاقتصادي القديم. إنّ

75 Ibid. p. 13.
76 Ibid. p. 181.
77 Ibid. p. 181.
78 Ibid. p. 181.

كلّ هذه الآلام، التي طبعت عصرنا، سببها التقنية العلمية، وبصيغة أخرى، يتحمّل العلم النصيب الوافر من مسؤولية وقوعها[79].

خاتمة:

كان راسل فيلسوفاً ورياضياً، ولم يكن إبستمولوجياً، أو رجل دين؛ لذلك كان من الطبيعي أن ينتهي الأمر به، أحياناً كثيرة، إلى طرح أسئلة أكثر من تقديم الأجوبة. إنّ اهتمام راسل بالفلسفة، كما يصرّح هو بذلك، نابع من أمرين اثنين: أولهما، معرفة ما إذا كانت الفلسفة قادرة على تقديم حجج لصالح ما يمكننا تسميته الاعتقاد الديني، وثانيهما، البحث عن إمكانية بناء معرفة ما، سواء في الرياضيات الخالصة، أم في غيرها من المجالات[80].

يمكن أن نختزل الحياة الفكرية لراسل في البحث عن الحقيقة الموضوعية في الدين، والرياضيات، والعلم، لا في الفلسفة؛ لأنّ الفلسفة أقرب دوماً إلى أن تكون مادة من المواد المشتقّة من باقي المجالات الأخرى، وليست غاية في ذاتها[81]. لقد خاض الرجل في علاقة الدين بالعلم، وهو منقاد بنفَسٍ شبه ديني، كما نبّهنا إلى ذلك، عن حقيقة تكوّن إنسانية أكثر منها إلهية، ومثلما يبحث الناس عن الإيمان الديني، بحث راسل من جانبه عن اليقين[82].

من الثابت، في تصوّر مؤلِّف **(العلم والدين)**، أنّ الدين دافع عبر مؤسساته عن الظلامية، وواجه الأنوارية التي جاء بها التقدُّم العلمي، لكنّ المثير، في نظرنا، ونحن نحاول فهم راسل، أنّ هذا الرجل، وبأحكام مسبقة وموجّهة، دخل المعركة منتصراً للعلم ضدّ الدين، لينتهي به المطاف مندّداً بما جناه علينا العلم كتقنية من مساوئ.

79 Ibid. p. p. 182-183.

80 Russell Bertrand, Histoire de mes idées philosophiques, op. cit, p. 11.

81 Wood Alan, Préface in: Russell Bertrand, Histoire de mes idées philosophiques: op cit. p. 330.

82 Ibid. p. 327.

لائحة المصادر والمراجع:

- Russell Bertrand, Science et religion, Traduit de l'anglais par Philippe-Roger Mantoux, Gallimard, 1971.
- Russell Bertrand,Histoire de mes idées philosophiques, Traduit de l'anglais par Georges Auclair, Gallimard, 1961.
- Venant Denis, Bertrand Russell, éditions Flammarion, Paris, 2003.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017